# الفصل الرابع
# التهميش
# والتربية وثقافة المقاومة

تداول الفكر الإنساني ، على مدى العصور ، ثم العلم الإنساني و الاجتماعي في العصور الحديثة قيمة المساواة و أهميتها بعيداً عن التهميش ، و حلمت الشعوب بالعدل الاجتماعي ، و أدخلت ذلك في مذاهبها و رؤاها الطوباوية ثم في فلسفتها ونظمها الدينية و الأخلاقية و القانونية ، و مازالت المساواة و ما زال العدل بعيدين عن الواقع وعن الناس .

و لما كنا نعيش في مرحلة تحول تاريخي تنبثق فيها نظم مجتمعية جديدة ، فلم يعد مقبولاً وجود أى مساحة للتهميش سواء للأفراد أو الشعوب أو غيرهما ، وثمة ملحمتان أساسيان للنظام الاجتماعي الجديد : المعلوماتية ، و العولمة ، حيث يتسم الاقتصاد البازغ بأنه اقتصاد معلوماتي ، بمعنى أن الإنتاجية والنجاح التنافسي ينبعان من قدرة الفاعلين الاقتصادية على خلق المعلومات والتعامل معها و السيطرة عليها و تطبيقها .

و بتأمل التاريخ المصري نجد أنه ليس مجرد حضارة مصرية امتدت ، إنما هو الأمة الوحيدة التي خاضت أربع حضارات مختلفة . حضارتها هي شخصياً الفرعونية التي يستحيل أن تكون كلها روحاً واحدة لأنه غير ممكن أن تكون سبعة آلاف سنة متجانسة ، لكن للتسهيل يتم القول الحضارة الفرعونية . ثم جاءت



obeikan.com

حضارة العصر اليوناني الروماني ، الإسكندر ثم البطالمة ، و هذه حضارة أخرى لا مجرد امتداد تاريخ ، ثم جاءت الفترة المسيحية في حضارة ثالثة ، ثم جاءت الحضارة الإسلامية و هذه حضارة رابعة . و لم تستطع أي من هذه الحضارات تهميش و استبعاد الحضارة الأخرى .

و مصطلح التهميش هو نقيض الاندماج أو الاستيعاب ، و هو كاشف لطبيعة البنية الاجتماعية في أي مجتمع ، فالتهميش ليس أمراً شخصياً ، و لا إلى تدنى القدرات الفردية بقدر ما هو حصاد بنية اجتماعية معينة ، و رؤى محددة ومؤشر على أداء هذه البنية لوظائفها .

- فلا يمكن بحال من الأحوال الإقرار بتكريس التهميش على كافة المستويات لأننا نحيا اليوم في خضم عمليات تطوير و تنمية اجتماعية ، و نحن سائرون مع السائرين .
- شئنا أم أبينا – في ظلال طيات العولمة ، و لن يغضب منا أحد من الكبار إن تركنا الركب ، و اتخذنا سبيل النكوص ، أو ضربنا عرض الحائط بتجارب من سبقونا و همشناها، و غضضنا الطرف عما حولنا . و لكن كل ذي عينين يستطيع أن يرى بوضوح أن الحضارة الإنسانية المعاصرة ، حضارة كونية ، و الباب مفتوح أمام الجميع ليسهم فيها ، و مفتوح بالقدر نفسه أمام كل طرف ليفيد فيها ، كما أن الباب مفتوح أيضاً لمن يريد أن يهمش نفسه ويلقيها وراء ظهره ويتجاهلها .

النكوص ممكن ، و التخلف مباح لنا ، و لكن البعد عن التهميش الذاتي يتطلب الجهاد من أجل مستقبل أفضل لمجتمعنا يفيد من تجارب البشر الآخرين

هو ميدان التضحية الحقيقية . و إذا كان هناك من يريد تحت دعاوى الخصوصية و الحفاظ على الهوية و حماية تقاليدنا .. أن ينكر وجود الآخرين أو يتجاهله ، و من ثم يحرّم الاستفادة من تجاربهم ، فذلك صوت يجدر بنا ألا نصغي إليه لأن تبنى مثل هذا الموقف هو إنكار فاضح للعلم الاجتماعي . و هو العلم الذي يقوم على صياغة التعميمات ، و لا أقول القوانين – التي تحكم السلوك الإنساني و التفاعل بين الناس و تخضع لها حركة المجتمعات الإنسانية .

و التهميش يعنى أنه صورة من صور عدم الاعتراف بالحقوق الأساسية ، وهو بذلك يكون صورة من صور العجز عن الوصول إلى المنظومات السياسية والقانونية اللازمة لجعل هذه الحقوق واقعاً حياً .

وقد أسهم اتساع نطاق التهميش الاجتماعي والأدبي و الفكري في جعل الرؤى المتصلة بأسبابه الرئيسية تختلف اختلافاً ملحوظاً و تبرز في هذا المجال ثلاث مدارس فكرية :

1- المدرسة التي تضع سلوك الأفراد و القيم الخلقية في المقام الأول ( كما هي الحال في قضية الطبقة الدنيا ) .
2- المدرسة التي تؤكد على أهمية دور المؤسسات و النظم ابتداء من دولة الرعاية إلى الرأسمالية و العولمة .
3- المدرسة التي تؤكد على أهمية التمييز و نقض الحقوق المنفذة فعلاً .

**ثقافة المقاومة والتحديات التي تواجه الإنسان :**

وقد واجه الإنسان التحديات منذ أن وجد على سطح الأرض و كانت البداية في العصر الحجري حين وجد نفسه مضطراً لمواجهة الحيوانات المفترسة ،

ومن ثم تشكلت لديه نزعة المقاومة فصنع أسلحة من الحجر كما وجد نفسه مضطراً أيضاً لحماية نفسه من تقلبات الطبيعة فاحتمى بالكهوف ثم عرف الإنسان كيف يصور حياته على جدران الكهوف منذ فجر التاريخ فحفر أشكالاً لحركات يقوم بها كما حفر صوراً لبعض الحيوانات التي كان يصطادها فكانت مرحلة التعبير مرتبطة بما يواجه من تحديات [1] .

و انتقل الإنسان إلى مرحلة أخرى حين تحول من جامع للغذاء ، يصطاد الحيوانات و يلتقط الحبوب و الثمار من الأشجار إلى منتج للغذاء إذ عرف الزراعة و من هنا عرف الأوقات المناسبة للبذور و الغرس و الحصاد و أدرك العلاقة بين الزراعة و فصول السنة . و مع الاستقرار و ازدياد العمران ظهرت معيشة الجماعات و تكونت جماعات بشرية كبيرة على ضفاف الأنهار و في كل تلك التحولات كان الإنسان في وضع المقاومة أولا ثم ضمان بقائه ثانياً .

و كانت الاكتشافات العلمية خير معين للإنسان على مواجهة التحديات التي قابلته و أعظم اكتشاف أفاد البشرية في عصورها البدائية الأولى هو اكتشاف النار فقد طور هذا الاكتشاف حياة الإنسان تطوراً مذهلا إذا أصبح بإمكانه أن يخيف الحيوانات بها و أن يضئ الظلام و أن ينضج الطعام [2] . ثم انتقل الإنسان لعصر المعدن فانتقلت الحياة البشرية نقلة كبيرة و أسهمت تلك النقلة في اختراع آلات و أدوات يدخل المعدن في تركيبها و خلال تلك الرحلة كان الإنسان في المواجهة مقاوماً لكل ما يقابله من عقبات ثم قامت الحضارات على ضفاف الأنهار فازداد العمران و من ثم احتاج الإنسان إلى ما يعينه على تحديات الحياة ووجد ذلك العون في العلم فازدهرت علوم الفلك و الرياضيات و التعدين و الطب

وغيرها ، و تقدم كثير من الصناعات و تطورت أساليب الزراعة و عرف الإنسان الكتابة ثم كانت النقلة الكبرى في اكتشاف قدماء المصريين أوراق البردي فاستطاع الإنسان تسجيل علومه وأدابه بطريقة أيسر و بازدياد العمران تشابكت المصالح فازدادت التجارة و تضاربت المصالح فقامت الحروب وواجه الإنسان تحديات الطبيعة من جفاف و فيضانات من جانب و تحديات أخيه الإنسان من حروب وصراعات في جانب أخر فتعلم كيف يقاوم ليستمر.

و امتدت مسيرة العلم البشرى فانتقلت المعارف التي حققتها الحضارات القديمة إلى الإغريق ثم انهارت الحضارة اليونانية ليستطع نور الحضارة العربية على الآفاق فيكتشف الإنسان كثيراً من مغاليق الكون في علم الفلك و غيره وكثيراً من الاكتشافات في جسم الإنسان في الطب .

ثم بدأ عصر اليقظة الأوروبية لتعود إليها شعلة الحضارة فيبدأ العصر الصناعي و تحقق الحضارة اكتشافين كبيرين أحداهما اكتشاف طاقة البخار والثاني آلة الطباعة فأصبح من اليسير نقل المعارف بسرعة مذهلة و صارت العلوم و الآداب قريبة التناول .

وواجهت الدول الكبرى صعوبات تنمية مواردها من المواد الخام لذلك سعت إلى احتلال بلدان أخرى بينما واجه الإنسان في هذه البلدان هذا الاستعمار الذي يستنزف طاقاته بالمقاومة محدثا تغيرات في حياته . فالتغيرات الهائلة في المجتمع لا تحدث دون أن يصاحبها صراعات فتظهر التعارضات ويحدث الصدام[3] ومن ثم المقاومة .

ثم كانت الحربان العالميتان الأولى والثانية و ما لهما من آثار على الإنسان ثم استطاع فريق من العلماء الأمريكيين اختراع الكمبيوتر ليحقق الإنسان في نصف قرن أكبر مما حققه عبر تاريخه الطويل على الأرض .

و قامت توازنات دولية ثم انهارت لكي يواجه الإنسان صعوبات جديدة تمثلت في تقدم دول تقدماً مدهشاً في مجال العلم جعلها تتحكم في الاقتصاد العالمي من ناحية و تعرض فكرها على البشرية من ناحية أخرى فظهرت العولمة وظهرت اتجاهات اقتصادية و فكرية تؤدى إلى الهيمنة فكان لابد من وجود نوع من المقاومة لما لا يرضاه الإنسان و الحياة مجالات و لكل مجال همومه و تحدياته الخاصة التي تتبع من التحديات العامة للإنسان .

**التربية و الشعر وثقافة المقاومة :**

وواجهت التربية تحديات عدة كما واجه الشعراء هذه التحديات بالمقاومة في شعرهم فعمد الشعراء العرب إلى تنمية و تأكيد تربية روح المقاومة في شعرنا العربي المعاصر. ضد كافة التحديات ومن بينها التهميش العمدي لفئات مجتمعية كي تترك أماكنها وتنزوي بعيدا عن المشهد .

فالتربية في مجملها تهدف إلى تعليم الفرد كيفية أن يجعل لنفسه مكاناً داخل مجموعته و أن يحترم القواعد و القيم المعمول بها،[4] و غالباً ما يلجأ إلى المقاومة بحثاً عن الدور الذي يرتضيه لنفسه حيث تكون التربية نمطاً من الهندسة الاجتماعية التي تغير بني اجتماعية معينة تمارسها كل الوسائط التربوية عامة والتعليمية على وجه الخصوص و الأدب قوة تربوية تشارك في عملية الهندسة

الاجتماعية التي يمارسها أفراده من أجل ترسيخ و مناصرة مشروع حضاري ومواجهة مشروع حضاري مضاد [5].

و المقاومة في الشعر مرتبطة في ذات الشاعر بالوطن حيث تتجلى صور المقاومة في الشعر بمقاومة المحتل ، مقاومة الديكتاتوريات ، الجمود ، الاستبداد ، التهميش ... الخ ، فالشاعر يريد لوطنه الرقى و التقدم و الرفاهية لينعم الناس فيه بحياة كريمة و لينشأ أبناؤه نشأة خلاقة دافعة للإبداع و النهوض .

فالشاعر يرى العالم من خلال نزعة إنسانية "فوق فلسفية" تحدد مداها رؤية الشاعر الفنية و ترتبط التربية بالشعر من خلال تلك النزعة الإنسانية التي تعتمد على ثوابت فكرية و التي تبدأ من التطابق بين الأنا المعنية بموقفها الفكري و بين الإنسان في مطلق كينونته أي غير المشروطة تاريخياً و لا اجتماعياً .

فعندما لا تستطيع الكتابة أن تعبر بصراحة عما تريد قوله فهي دائماً تخترع. شاهد ذلك أنه في أزمنة القهر و الاضطهاد توجد تقنية خاصة للكتابة و من ثم نوع معين من الأدب يمكن أن تقدر فيه الحقيقة حول المسائل الحيوية على طريقة مجازية .

و تقوم تربية المقاومة في الشعر العربي المعاصر على ثوابت ترتبط بالنزعة الإنسانية و هذه الثوابت هي "المنظور الكلى للإنسان" و "الجسد الإنساني" و "رؤية العالم" حيث تمتد النزعة الإنسانية في تربية المقاومة في الشعر لتؤسس رؤية جديدة للوجود كله فكل شيء له حق الوجود و الحرية و البقاء .

كما تقوم تربية المقاومة في الشعر على إنتاج الدهشة . و الدهشة تدل على المفارقة و تنتج عن بناء السياق على أساس التناقض الدلالي بين بعض عناصره

وتحقيق تماسكه و انسجامه بفضل هذا التناقض و يتمثل هذا التناقض بحال القراءة باعتباره فجوات أو ثغرات دلالية في نسيج السياق المتماسك و المنسجم تركيبياً فالدهشة إذن توسط بين الإغراب لمكانة الدلالة في إنتاجها [6]

و الدهشة بما سبق مفهوم يحيل إلى قدرة النص على الفعل في قارئة و في قراءاته بالتالي بتوجيهه توجيها انفعاليا عبر خصائص تركيبية و دلالية .

و تتحقق تربية المقاومة بتوافر الوعي لدى الشاعر هذا الوعي الذي يعكس ثقافته السياسية و الفكرية و الاقتصادية و الاجتماعية ... الخ .

فتلازم الشعرية و الوعي هي صورة " جمالية " لتلازم أكثر جذرية في حياتنا هو تلازم الإدراك والمدركات فلا إدراك بلا شيء( موضوع ) يدركه و لا أشياء ( موضوعات ) بلا إدراك يمنحه حق الوجود الفعلي أي الوجود المدرك .

و الوعي الشعري من خلال التوجه التربوي هو وعى مضاعف فإذا كان الوعي في مطلق دلالته يحول المدركات الحسية خارجة إلى موضوع يصوغه على صورته فإن صنعته الشعرية تعيد إنجاز هذا الموضوع تخيلاً لتضعه مره أخرى خارج الوعي و بموازاة المدركات الحسية الأولية التي ابتدأ منها الوعي ليبدأ هنا دور التربية من خلال قيام الواقع ليكون محور للاختيار و الوعي محوراً للتأليف لتكون القصيدة بذلك معادلا مكتملاً للواقع . و الأدب بشكل عام و الشعر على وجه الخصوص نمطان من اللغة التي تنمو و تتجسد مع مرور المجتمعات المختلفة بأزمات مفصلية أو عمليات تحول جارفة في تاريخها و بشكل جدلي تنمو الأعمال الجمالية خلال حركة المجتمعات لأنها تمر بعمليتين متناقضتين في آن واحد ، التأثر بالواقع والناظر نحو مستقبله من ناحية و خلق الوعي الذي يشارك فيه ويقود إلى تغير هذا

الواقع و العمليتان هما عمليتا سلب لهذا الواقع و إيجاب لواقع جديد [7] . ويلعب الماضي دورا في وعى الشعر المربى حيث ينظر الشاعر إلى الماضي نظرة فاحصة بهدف تنقيته و تجاوز ما فيه من سلبيات إلى آفاق أرحب و أعم .

و تتبدى تربية المقاومة في الشعر العربي المعاصر في هذا التطابق بين الوطن و الذات فالأخيرة – وحدها هي التي تصعد – ضمن شروط معرفة لهذا التصعيد – الدلالة المرجعية لقطعة من الأرض إلى الدلالة الكلية ، و الميتافيزيقية للوطن و يتكرر تطابق الذات مع الدلالة الأوسع للشعر باعتباره رؤية مفرطة الجمالية و مفرطة الكلية ( كونية ) للعالم .

و يواجه الشاعر المربى في عالمنا العربي المعاصر عدة تحديات تحتاج لتأصيل تربية المقاومة في شعره على رأسها المؤسسات التعليمية الخادمة لخطاب السلطة . و هذه المؤسسات التعليمية عادةً ما تتبع النظام المسيطر في المجتمع والذي يحدد ما هو مناسب و مسموح به مما يؤسس لقارئ مبرمج ينظر لبعض النصوص على أنها أدب و إلى غيرها بأنها وضيعة أو غير أدبية فيكون هذا القارئ مساهما في استمرارية الأيديولوجيا التي قامت ببرمجتها و بالتالي حين يتعامل هذا القارئ مع عمل أدبي أو نص فإن الذائقة التي اكتسبها ستكون الفيصل الأول في حكمه وبما أن هذا القارئ مبرمج ليخدم الأيديولوجيات القائمة فإن العمل الأدبي الذي يتعارض أو يختلف مع أيديولوجيات السلطة القائمة أو إحدى السلطات المسائدة فيها سيكون موضع رفض و عدم قبول من القارئ حتى و إن كان العمل فنياً وجمالياً مكتملاً [8] . و هذا يؤكد على الدور المؤكد للمقاومة في الشعر العربي المعاصر. و من جانب أخر تمثل المدارس ساحات للتنافس لا تتميز فقط بالتناقضات

البنائية و الأيديولوجية ولكن أيضاً بالمقاومة الجماعية النشطة من جانب الطلاب. بالطبع يحدث الصراع و المقاومة في إطار علاقات غير متكافئة للسلطة و التي دائماً ما تكون في صالح الجماعات السائدة ، ولكن النقطة الأساسية هي أن هناك مجالات معقدة و إبداعية للمقاومة تقوم من خلالها الممارسات المرتبطة بالطبقة والعرق و النوع في كثير من الأحيان برفض ونبذ الرسائل الأساسية للمدارس [9] .

و ثقافة المقاومة تلتقي عند هدف رئيسي يختص بحرية و إرادة الإنسان وكرامته إنها ضرورة إنسانية مطلقة في تحقيق الذات الإنسانية وهى مشروعة في مختلف تجلياتها ... و أن التاريخ هو تاريخ نضال الإنسان و استشهاده في مختلف مجالات العلم و الفكر ضد كل ما يعيق وجوده و تقدمه [10] .

و المقاومة و التغيير ليس فقط ممكنين ولكنهما يحدثان باستمرار و فعالية المقاومة و تحقيق التغيير يعتمدان على تنمية الناس لوعى نقدي عن السيطرة و أشكالها و ليس فقط معرفتها ومع اختفاء النقد يختفي الإبداع ، حيث تظل اتجاهات فكرية معينة سائدة تقف ضد التغيير أحياناً طويلة عن المعرفة التي تغيرت في " المراكز" لأن حامليها يظنون أن ما يعرفون هو العلم وما يعرفون لا يتعرض للتبادل وبالنقد و إنما بالتسليم و ربما باللامبالاة [11] .

على ضوء ذلك يمكن صياغة تعريف لثقافة المقاومة في الشعر : أنها حركة مجتمعية تربوية صاعدة والصراع أساس هذه الحركة لأن التطور نتاج متناقضات متصارعة . و الصراع مبدأ التطور و سببه و الحركة هي الصورة الخارجية لهذا الصراع و من ثم تنهض في قلب المجتمع الذي نعيشه مجتمع طبقي يصوغ فكراً علمياً و تصوراً شاملاً للعالم كما تصوغ ثقافة جديدة و تبدع فناً جديداً و في هذا

الفكر العلمي يتحدد المضمون الحق للصراع في الكون و الحياة والمجتمع و الفن فيبرز دور الفرد ويتأكد الحدس الذاتي رفضاً للخضوع للأفكار السائدة و المرجعيات المعتمدة و سبيله إلى ذلك نزعته الإنسانية لمناهضة ما يشوه وجه التاريخ من مظالم و سياسات لا إنسانية مقاوما للتهميش .

و الشعر العربي المعاصر و تعدد أشكال المقاومة فيه هو شعر مرب بالدرجة الأولى و هو جزء من الأدب العربي . الذي يشكل مجالاً للمقاومة بامتياز ، إنه لا يقصد تغيير الواقع مباشرة فهذا وهم تخلص منه الكاتب العربي عندما عرف كيف يكتب بدون اتكاء على مساندة أيديولوجيا أو حزب أو دولة و إنما يقصد زعزعة المضمون ما يسميه ( المتخيل الاجتماعي ) أي الأرحام المولدة لقيم الحرية والعدالة و الديمقراطية المقترنة بالحوار العمومي و من ثم فإن قواعد الأدب العربي اليوم هي نقيض القواعد التعسفية التي تحكم المجال الاجتماعي السياسي إنها قواعد التجريب ، تغيير اللغة الأحادية ، حرية التخيل المسعفة على ابتداع عوالم ممكنة تضع موضع تساؤل العوالم القائمة [12] .

بذلك يمكن القول أن مفهوم المقاومة مفهوم يسمح بتحليل كافة العلاقات المجتمعية من خلال المفهوم الأيديولوجي له ، و يقع عبء تأصيل هذا المفهوم على عاتق النخب المثقفة من خلال المعرفة ، فالنخب المثقفة لم تهتم بالمعرفة قدر اهتمامها بالتغيير ، و ما يسمى الوعي السائد هو تلك المجموعة من الأفكار و القيم المشتركة التي يتم تبنيها على مستوى عام في المجتمع . فالنخب المثقفة العربية لم تعر المعرفة التي يتم عن طريقها تكوين الوعي السائد الاهتمام اللازم ، بل اهتمت بالتغيير والممارسة على حساب العمل الفكري و النظري ، فالمعرفة هي السلطة

الحقيقية و تجديد الوعي ليواكب تطور المجتمع ، و كل إنجاز آخر كالوصول إلى السلطة أو تبوء المناصب الإدارية والوزارية لا أهمية له أمام الإنجاز المعرفي أي تجديد الوعي . فالسيطرة ليست حتمية أو قائمة إلى الأبد ، بل هناك مساحة يمارس فيها الفعل الإنساني تأثيره في تلك السيطرة . لذلك لا ينظر إلى المقهور في إطار مفهوم المقاومة على أنه يقف ببساطة موقفا سلبياً في مواجهة السيطرة .

و من ثم فإن فكرة المقاومة تشير إلى حاجتنا إلى أن نفهم جيداً العلاقة الجدلية المعقدة بين الخبرات الحية و البني التي تحاول فرض سيطرتها عليهم .

**التصور الذي تقوم عليه ثقافة المقاومة :**

و إذا كنا في مجال الأدب ، بوجه عام نميز بين ما يسمى أدب التعبير ، و ما يطلق عليه أدب التفسير ، فإننا نستطيع القول بأن ثقافة المقاومة تدخل في إطار ما يسمى أدب التفسير . إن هدف أدب التعبير هو مجرد إحداث لذة وجدانية ، أما أدب التفسير فهو الذي يرتكز إلى أسس و أغراض محددة ، تجاوز مجرد اللذة الوجدانية ، و بحيث تتخطى الفرد إلى إحداث التأثير في المجتمع و في الكون ، وفي العالم بناء على نظرية محددة تماماً [13] .

إن الجماعة لا تفرض رؤيتها للعالم على الفرد فحسب ، بل تفرض عليه الخوف من التفكير ، لأن التفكير يعني التفرد بما يصحبه من وحدة ، و يعني إحلال اللاإرادية محل اليقين المستمد من الجماعة ، و التضحية بالانتماء في مقابل الشعور بالحرية . و لو كان الناس مغرمين بالحرية حقا ، لما كان في العالم استعمار ولا تبعية ، لهذا قد يعيش مجتمع من المجتمعات قانعاً بوهم زائف ، و وظيفة النقد مهاجمة ذلك الوهم بالحفر في التربة التي نمت فيها جذوره [14] .

إن أي ثقافة تفرز مثقفيها ليقودها إلى ما تعد به ، و هذا لا يدفعنا إلى الانقياد إلى عقول مخادعة باعتبار أنها هي التي تمثل ثقافتنا دون غيرها ، هذه العقول قد لا تكون المثل الحقيقي لثقافتنا مهما كان تميزها و انجازها ، بل أحيانا مما تكون مضادة لثقافتنا من خلال إعاقة تلقائية وعى الناس الأعمق ، وهذا يحدد في ثقافة المقاومة ما يسمى بالاستبداد الثقافي أو الثقافة المستبدة [15].

والحديث عن سلطة مستبدة تقمع الثقافة لا يمنع الحديث عن ثقافة مستبدة تساعف السلطة. فوظيفة المثقف تتحدد بعلاقته بجهاز الدولة أولا حيث يمارس هذا الجهاز دورا إداريا معرفيا يقوم بدوره في إدارة وتوجيه أجهزة الدولة ، ويقوم بإنتاج معرفي داخل أجهزة الدولة ، وبفضلها يكون المثقف في الحالتين جزءا من السلطة ، مع ذلك فإن انتماء المثقف إلى السلطة يعود إلى الطبيعة الداخلية للعمل الثقافي الذي يمنح المثقف مرتبة اجتماعية تضعه فوق من لا يعرف.[16]

مع أن المثقف هو من يستوعب ثقافة ناسه بدرجة من الوعي الفائق المسئول الذي يمكنه من أن يساهم في تعميق الإيجابيات ، وتحريك جماعته لصياغة البني الأعلى فالأعلى ، التي إذا ما وصلت إلى درجة من الرقى والإنجاز والقيم الإنسانية القادرة على العطاء والانتشار سميت حضارة [17]

إلا أن علاقة المثقف بالسلطة علاقة عضوية كونها قامت على مرتبة ، لأن المرتبة كما الترتيبية بشكل عام تمثل جوهر السلطة وقوامها ، يلتقي المثقف بالسلطة في علاقة مزدوجة ، علاقة خارجية تتجلى فيها الإدارة وإنتاج المعرفة ، وعلاقة داخلية تتمثل بالمرتبة ، وإعادة إنتاج المرتبة ، تقمع السلطة الرعية باسم القانون ، ويقمع المثقف العوام باسم المعرفة مع فرق أساسي يلغى التناظر الواهي



obeikan.com

بينها ، فالمثقف لا يقنع العوام إلا اعتمادا على قوانين سلطوية تعرف النخبة وتحدد العوام.[18]

إن العلاقة المتبادلة بشكل لا متكافئ بين سلطان يحتاج إلى التبرير، ومبرر يحتاج إلى سلطان هي في أساس استمرار الشكل المؤسساتي ، المثقف ، السلطة ، والثقافة السلطوية ، وإذا كانت تلك الثقافة قد مزجت قديما بين السلطان والمقدس، وقدست العارف الذي يقدس السلطان ، فإنها في شكلها الحديث واصلت سيرتها الأولى ، بعد أن غيرت القناع الذي يقع عليه التقديس ، فقد كان المقدس يشير إلى شخص يقول بالجهاد ، ويمثل ظل الله على الأرض ، فانتقل في الزمن الحديث إلى جهاز الدولة الذي يكتسح في اتساعه المجتمع ويلغيه. أصبحت الدولة هي المقدس وسقط ما عداها في خندق المروق ، وفي الحالتين أفرزت السلطة الكاتب المرتبة الذي يحمل في وجدانه المقدس ، لأنه يدافع عن سلطة لا خارج لها[19]

بذلك تسيطر السلطة الحديثة على المعرفة من أجل إنتاج معرفة تمنح السلطة شرعية وتعيد إنتاجها بوصفها سلطة شرعية ، فتبدو السلطة أثرا لاصطفاء طبيعي قائم على الموهبة والجدارة ، ويصبح الذكاء عنصرا في السلطة ومنها ، بل قاعدة لوجودها ، فالسلطة هي الذكاء ، والشعب هو الغباء ، وتلك عنصرية الذكاء وهي خاصة بالطبقة المسيطرة ، ويبرهن على تفوقها ويسوغ امتيازاتها ، ويدلل على حقها في إخضاع الطبقات الأخرى.[20]

والسؤال هنا يتعلق بالطريقة التي تعمل من خلالها السلطة في تأكيد شرعيتها لخدمة امتيازاتها ، وإضفاء الشرعية على كل ما تراه يصب في مصالحها، ومن هذه الطرق المستخدمة صناعة نجمها الثقافي وتهميش الآخرين ، وإنتاج لغة

خاصة بتمجيده ، وكما تصنع السلطة هذا النجم الثقافي ليكون نجاحه هو نجاحها، فإنها تنتج لغة تمجد النجم الثقافي في تمجيدها للسلطة التي خلقته. وهى لغة جوهرها المسافة والاختلاف ، تتحدث عن اللامع ، الألمعي ، المتميز المرموق ، وهو حديث في اللحظة ذاتها عن: المبهم ، البليد ، المبتذل ، الغبي ... ويمكن لهذا الحديث أيضا أن يتتابع في ثنائيات شهيرة مثل: النخبة/الجماهير ، الصفوة/العامة ، وفي الحالات جميعها سواء كان ذلك في النعوت المفردة أو الثنائيات التليدة ، فإن المثقف الكبير في الزمن الحديث هو السلطة التي تنتج أجهزتها عنصرية الذكاء ، ونجوم الثقافة ، وهالة الألقاب[21]

والثقافة لها طبيعة جدلية ، فهي تحوى في داخلها إمكانيات قمعية وتحريرية ، وهكذا تصبح الثقافة المادة الخام التي يمكن استخدامها للسيطرة والتهميش أو للتحرير. في الحالة الأولى تمثل الثقافة محاولة الجماعات المسيطرة اختراق ثقافات الجماعات الخاضعة من أجل كسب قبولها وموافقتها على النظام القائم ، وفي الحالة الثانية تشير الثقافة إلى مجموعة الممارسات والمعتقدات والموارد غير المتجانسة ، والتي يمكن أن تتكيف مع الثقافة المسيطرة أو تقاومها ، أو حتى تتعامل معها بنوع من اللامبالاة [22]

## التهميش بفلسفة المسافة :

أعطى تاريخ الكتابة الكاتب مرتبة تميزه عن غيره ، وأدرك الكاتب معنى المرتبة ، وضرورة الحفاظ عليها ، وإذا كان الكاتب يلغى ذاته في حضرة من هو أعلى منه مرتبة ، فإنه يشهر هذه المرتبة في وجه القارئ العادي ، وفقا لفلسفة يمكن أن تدعى: فلسفة المسافة ، إذ المسافة ضرورة تفصل الكاتب عن القارئ ،

وترمى بهما إلى حقلين مختلفين: حقل المعرفة ، وحقل الجهل[23] في وقت يشهد فيه عالمنا عولمة متسارعة الخطى ، وثورة معلوماتية واتصالية متواصلة ، وتحول المعرفة إلى المورد الأعلى والأخطر أثرا في تقدم المجتمعات وازدهارها الاقتصادي ، لن يصبح بالإمكان إنتاج مواطن مستقل التفكير ، وقادر على التعامل الإيجابي مع معطيات واقعة وعالمه إلا بتنمية ثقافة المقاومة لكل ما يعترض طريق حضارته ، دافعا عن نفسه مغبة إلقائه في خانة المتلقى فقط ، ولتكن بدايته إصلاح فكره بعيدا عن فلسفة المسافة ، لأن إصلاح الفكر يعنى إصلاح التربية أولا بحيث يصبح دور التربية مؤثرا في بناء منظومة القيم الإنسانية.

والبدء من فلسفة المسافة بدء من عقد مضمر يعترف به طرفا العلاقة ، يعترف الكاتب بجهل القارئ ، ويعترف القارئ بأنه في حاجة إلى الكاتب لأنه يحتاج معرفة الكاتب. يحدد العقد المضمر شكل العلاقة بين الطرفين ، ويكون احترام المسافة أساس العقد وجوهره ، فعلى القارئ أن يدرك أن احترام المسافة شرط للتعلم ، فيقبل ما يقوله الكاتب طائعا وراغبا ، ولا يخضعه إلى تساؤل ومحاكمة. تنتهي في فلسفة المسافة إمكانية الحوار ، ويتحول القارئ/التلميذ إلى طرف سلبي خاضع ، ويتحول عقله إلى مخزن للمواد التي يقررها الكاتب أو المعلم ، فتأخذ المعرفة أشكال الهبة الممنوحة من طرف موهوب إلى طرف غير موهوب[24]. ومن هنا تتأكد ملامح التهميش من خلال هذه المسافة التي فرضتها فوقية المرتبة .

وهذا نمط من الهيمنة والقهر والقمع له خصيصة مميزة. أنه يضحى بالاختلاف لصالح المشابهة والمطابقة ، وهنا تتبدى سلطويته في قصر ما سواه ليكون صورة ناقصة عنه. ومأتى ذلك أن علاقة النمطي بموضوعه تأخذ طابع

الإزاحة والاستبدال ، فهو يلغى الموضوع ويرسى مكانه تصوره الخاص على أنه الموضوع نفسه. ونتيجة لذلك من الجهة الأخرى أن الموضوع لا يستطيع أن يحضر كذات إلا بنفي ذاتيته وتقمص هوية الآخر ، وتفصيل كيانه على مقاييسه ، وهذا بالضبط يجعل من النمط مقولة السلطة التي تسقط صورتها على الكل ، وتجبرهم على ارتداء هذه الصورة ، والأمر على هذا النحو ليس إلا نوعا من عبادة الذات وتقديسها ، إنه الفعل النرجسى الذي يروج عبادة نفسه في الآخرين ، وبسبب ذلك يجعل من وجودهم مجرد مرايا عاكسة لوجوده [25]

وقد تجلت تلك الهيمنة النمطية في مجال التعليم. فالتعليم يركز على الماضي، ويهمل المستقبل ويدعم الامتثال والتقليد ، ويحارب الابتكار والتفرد ويدعم القهر والتسليط ويناهض الاستقلالية والنقد ، ويمجد الحصول على الشهادات والاعتماد على الوظائف الحكومية ، ولا يشجع على التعلم والاعتماد على النفس. أصاب التربية فكرا ونظاما بعض أعراض العقم والشلل ، حتى غدت تلك الأعراض قدرا مقدورا تكيف كثير من المشتغلين بالتربية معها يجترونها فكرا خامدا وممارسة كلية وكأنما توقف الزمان وتثبت المكان وضاق الأفق وتجمدت المسلمات ، واختفت البدائل ، وانحسر الإبداع والاجتهاد. [26] ودأبت السلطة المهيمنة على توظيف المؤسسات والعمليات التعليمية نحو إعادة إنتاج الأفراد للحياة في النمط الاجتماعي القائم والتكيف مع أوضاعه أو علاقاته ، ومصادر السلطة فيه بما يتماشى مع مصالح هذه السلطة.[27]

ففي سلوك الأزمات تتباين استجابات الأفراد ، واستجابات الأمم ، لكنها في عمومها تتراوح ما بين الانجراف العام أمام الأحداث والتعامل معها ، على أنها

قدر لا مهرب منه ، أو محاولة استغلال الأزمة ، والتقاط ما يتساقط منها من مكاسب وقتية أو الالتجاء إلى نقطة نائية في المكان والزمان كعاصم من الضياع أو المقاومة في قلب الأحداث نفسها أيا كانت النتائج تلك كلها اختيارات يحددها الوعي واللاوعي ، لأن الاختيار لا يكون من فراغ ولكن الاختيار قائم على ما تحدده الخبرات السابقة ، والموقف الحالي. أي ما يحدده التاريخ والظروف الموضوعية وما يجاوز هذا أو ذاك من قدرة ذاتية على استبصار ما في الواقع من إمكانات وعلى هذا الأساس تتباين النظرة إلى التاريخ والواقع . ما بين نظرة إلى الماضي على أنه مقبرة للأعمال والأفكار لا جدوى من النبش فيها ، ونظرة على أنه متحف يضم كنوزا تسهم في إعادة بنائنا العقلي ، ونظرة إلى الواقع على أنه قوة علينا أن نتكيف معها بالرضوخ ، ونظرة على أنه قوة تحفز طاقتنا لإعادة صياغته من جديد.[28]

ولو نظرنا إلى الثقافة نظرة محللة ، بطريقة مختلفة ، فسوف نتبين إمكان المقاومة ننظر إلى الثقافة لا بكونها تعبيرا عاما عن المجتمع متسقا مع مكوناته المادية ناتجا عن تطورات تاريخية معينة بل باعتبارها خبرات حية ، تتضمن جدلا في العلاقة بين الإيديولوجيا والنسق الاجتماعي والاقتصادي من ناحية وجدلا في العلاقة بين العناصر النقدية التي تحاول التغيير ، والعناصر التربوية التي تحاول التسكين من ناحية أخرى. هنا نتبين أن العلاقات الاجتماعية ليست علاقات إتقان ، وإنما هي بالأحرى علاقات خصومة بين المؤسسات الاجتماعية في المقام الأول.[29]

ويقف العقل الأداتى على قمة هرم الهيمنة ، حيث صار أسلوب التفكير المهيمن في العالم الحديث ، وهو الأسلوب الذي بات يحكم العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية سواء بسواء.[30]

والعقل الأداتي هو منطق في التفكير ، وأسلوب في رؤية العالم ، مصطلح الأداتية يحمل مضمونين: فهو أسلوب لرؤية العالم ، وأسلوب لرؤية المعرفة النظرية، فرؤية العالم بوضعه أداة تعنى اعتبار عناصره أدوات نستطيع بواسطتها تحقيق غاياتنا ، وبإمكاننا أيضا النظر إلى المعرفة باعتبارها أداة وسيلة لتحقيق غاية. وربما تكون هذه الفكرة أصعب كثيرا لأنها تتخلل الثقافة لدرجة أن أي وجهة نظر أخرى لا ترى في المعرفة أداة يصعب تصورها ، والعقل الأداتى معنى كليا بالأغراض العملية ، كما أنه يفصل الواقعة عن القيمة إذ أن اهتمامه ينصب على اكتشاف كيف تصنع الأشياء وليس على ما يجب صنعه.[31]

وقد أصبحت أجهزة الدولة السمعية والبصرية تصوغ ثقافة المجتمع ، وتختار عناصرها من خلال عقل الجهاز الحاكم ،ومن ثم أصبحت الدولة مثقفا جمعيا ، وعقلا جامعا يصوغ عقل المجتمع، وفقا لقوانين المسموح والممنوع حيث يكرس ذلك لقواعد التهميش .

وقد نتج عن ذلك أنماط من التفكير ، لا صلة لها بطابع التفكير العقلاني والعلمي ،مثل التفكير الغائي (البراجماتي) وصياغة الأحداث بطريقة التفكير الخرافية أو الأسطورية علاوة على إفراط البعض في الغيبيات ، والدعوة إلى نبذ التفكير في عالم الواقع واستبداله بعوالم أخرى . فنحن نعيش في زمن يحتاج لمقاومة التهميش بكل أشكاله وذلك للتنامي المتصاعد للخيال البشري الذي أصبح أمرا حتميا حتى يمكن استيعاب متغيرات العالم من حولنا .

# الهوامش

1- فوزى خضر و آخرون : الأدب المصري و تحديات العصر ، الهيئة المصرية العامة لقصور الثقافة القاهرة 2001ص7 .

2- ول ديورانت :قصة الحضارة ،ترجمة زكي نجيب وآخر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، 2001 ، ص 22 .

3- الفن و هايدى تولفر : نحو بناء حضارة جديدة ، المركز القومي للبحوث التربوية و التنمية ، القاهرة ، 1995 ، ص 17 .

4- لوتانه خوى : التربية و الحضارات ، المركز القومي للبحوث التربوية و التنمية ، 1995 ، ص 52 .

5-عصام الدين هلال : الخطاب التربوي في شعر أمين الديب ، الندوة العلمية السابعة ، تربية كفر الشيخ ، 2005 ، ص 5 .

6-محمد فكرى الجزار : استراتيجيات الشعرية في قصيدة أمل دنقل مجلة فصول، القاهرة العدد 64 ، صيف 2004 ، ص 258 .

7-عصام الدين هلال : مرجع سابق ، ص 4 .

8-عفاف البطانية : النصوص و سياقتها ، فصول ع 58 ، القاهرة ، شتاء 2000 ، ص 69 .

9- *Aronowiz, Stanley and Henry, A. Giroux; Eucation stillundersiege, 2nd ed. London: Bergin and Garrey, 1993, pp. 67-68.*

10-مصطفي عبد الغنى : الغيم و المطر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، 2003 ، ص 11 .



obeikan.com

11-عبد السميع سيد أحمد : علم الاجتماع التربوي ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، 1993 ، ص 161 .

12-محمد برادة : هل للأدب قواعد ؟ فصول ع 58 ، القاهرة ، شتاء ، 2002 ، ص112 .

13-عاطف العراقي : دور الفكر المستنير في معركة الحرية عالم الفكر ، ع 3 م 33 ، الكويت ، مارس 2005 ، ص 139 .

14-عبد السميع سيد أحمد : مرجع سابق ، ص 215 .

15-عاطف العراقي : مرجع سابق ، ص 142 .

16-فيصل دراج : استبداد الثقافة ، و ثقافة الاستبداد ، فصول ع 2 م 11 ، القاهرة، صيف 1992 ، ص 9 .

17-يحيى الرخاوى : دور المثقف مسئولية لا موسوعية ، مجلة العربي ع 5 0 6 ، الكويت ، سبتمبر 2002 ، ص 17 .

18-فيصل دراج : مرجع سابق ، ص 9 .

19-السابق نفسه ، ص 12 .

20-السابق نفسه ، ص 24 .

21-السابق نفسه ، ص 14 .

*22- Hanry Goroux. A Theory and Resistance in education, Towards apedagogy for the opposition, Reuised and Expanded Edition London, Bergin & Garve, 2001, p 167*

23- فيصل دراج : مرجع سابق ، ص 15 .

24- السابق نفسه ، ص 15 .



obeikan.com

25- وفيق سليطين : أسئلة الإبداع في مواجهة النمط ، فصول ع 58 ، القاهرة ، شتاء 2004 ، ص 261 .

26- حامد عمار : دراسات في التربية و الثقافة ، مكتبة الدار العربية ، القاهرة ، 1995 ، ص 15 .

27- السابق نفسه ، ص 33 .

28-عبد السميع سيد أحمد : مرجع سابق ص 30 .

29- السابق نفسه ، ص 314 ، ص 315 .

30-أيان كريب : النظرية الاجتماعية ، ترجمة محمد حسين غلوم، عالم المعرفة ، ع 244 ، الكويت ، ابريل 1999 ، ص 318 .

31-السابق نفسه ، ص 315 ، 316 ، 317 .

obeikan.com